

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة النور

سورة مدنية، تبدأ بداية فريدة تدل على مدى اهتمام القرآن الكريم بالعنصر الأخلاقي في الحياة، ومدى عمق هذا العنصر وأصالته في العقيدة الإسلامية، وفي فكرة الإسلام عن الحياة وذلك في إعلانها القوي، وتقريرها الحاسم، وفرضها الواضح لكل ما فيها من: حدود، وتكاليف، وآداب، وأخلاق، حيث يقول الله تعالى:

﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾﴾

يعني: هذه ﴿سُورَةُ﴾ من القرآن ﴿أَنْزَلْنَاهَا﴾ نحن ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ أي: أوجبنا ما فيها من الأحكام ﴿وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ﴾ دالة على توحيد الله وقدرته ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون، فتعملون بأحكامها وآدابها.

وفي بداية أحكامها يقول ربنا سبحانه وتعالى:

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾

والمعنى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ البكران اللذان لم يتزوجا ﴿فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ حداً لهما على جريمة الزنا، هذا ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ أي: شفقة وتهاون ﴿فِي﴾ تنفيذ ﴿دِينِ اللَّهِ﴾ أي: حكمه وشرعه ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فالتزموا، ونفذوا ما أمرتم به، على الوجه المطلوب أيضاً ﴿وَلْيَشْهَدْ﴾ أي: يحضر ﴿عَذَابُهُمَا﴾ جلدهما ﴿طَائِفَةٌ﴾ عدد ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ المصدقين بالله تعالى.

حكم آخر:

﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٣﴾

في الآية الكريمة تنفير من الزنا، وتبشيع أمره، والابتعاد عن أهله، حيث إن ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ يترجم عادة أن يَنْكِحُ ويتزوج ﴿إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ إذ الشرك مثل الزنا. ﴿وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ كذلك ﴿لَا﴾ ترغب عادة أن ﴿يَنْكِحَهَا﴾ أي: يتزوجها ﴿إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾.

﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ﴾ أي: الزنا ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ الأخيار، كما هو محرم على غيرهم. وبعد أن وضع الله حد الزنا ونفّر عنه، قال عز وجل:

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ﴿٤﴾

أي: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ﴾ يقدفون بالزنا ﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾ العفيفات ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا﴾ على ما قالوه ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ يشهدون أنهم رأوا عملية الزنا هذه، فهي تهمة باطلة، ويترتب عليها لصاحبها ما يلي:

أولاً: جلد القاذف ثمانين جلدة ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾.

ثانياً: رد شهادته ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾.

ثالثاً: الحكم عليهم بالفسق ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: الخارجون عن طاعة الله، المؤذون لعباد الله.

ثم يقول الله تعالى:

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٥﴾

يعني: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ من هؤلاء القاذفين، وذلك بعد إقامة الحد عليهم،

بجلدهم ثمانين جلدة ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ عملهم، وسلوكهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لذنبهم ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم.

حيث يرد لهم اعتبارهم، ويزول وصفهم بالفسق، وأما شهادتهم فقد قيل تقبل، وقيل لا تقبل، وفي هذا تربية للمسلم على التريث الكامل في أقواله، والحفاظ على لسانه؛ صيانة لمجتمعه.

إذا كان هذا الذي قلناه قذف الأجنبية، فما الحكم في قذف الزوجات؟ يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَمْسَةُ أَنْ لَعَنْتَ اللَّهَ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾﴾

أي: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ﴾ يقذفون ﴿أَزْوَاجَهُمْ﴾ بالزنا ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ﴾ أربعة، يشهدون أنهم رأوا عملية الزنا هذه، وفي هذه الحالة لا نقول إنها تهمة باطلة؛ حيث لا شهود، ولا نقول إنها صحيحة وهي بلا شهود فما العمل إذن؟ يكون اللطف من الله، وتشريع لهذه الحالة جديد، يسمى باللعان.

وهو: أن يتلاعن الزوجان، أي: كل واحد يلعن نفسه إن كان كاذبًا، وكيفية ذلك توضحها الآيات الكريمة. ونبدأ بالزوج.

﴿فَشَهَدَةُ أَحَدِهِمْ﴾ على نفسه، ليثبت صدقه، فيما قذف به زوجته، ولا بينة عنده عليه، هي ﴿أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فيما رماها به من الزنا، وذلك بدلًا من الشهود الأربعة.

﴿وَالْخَمْسَةُ﴾ وهي شهادة زائدة، يقول بعدها ﴿أَنْ لَعَنْتَ اللَّهَ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ فيما رمى به زوجته من الزنا، فهل ينتهي الأمر على هذا؟

لا، فلا بد أن تتاح الفرصة للمرأة، لتدافع عن نفسها إن كانت مظلومة.

حيث يقول سبحانه وتعالى:

﴿وَيَذَرُوهَا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَذِبِينَ ﴿٨﴾
وَالْخَمْسَةَ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾﴾

يعني: الذي ﴿يَذَرُوهَا﴾ والذي يدفع ﴿عَنْهَا الْعَذَابَ﴾ وهو حد الزنا ﴿أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ﴾ أي: زوجها، الذي رماها بالزنا ﴿لَمِنَ الْكَذِبِينَ﴾ فيما رماها به من الزنا.

﴿وَالْخَمْسَةَ﴾ وهي شهادة زائدة، تقول بعدها ﴿أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ﴾ زوجها ﴿مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فيما رماها به من الزنا.

وبهذا، ينتهي اللعان بين الزوجين، وهو حكم جديد خاص بهما، وهو فضل من الله تعالى عليهما، بل فضل من الله تعالى على المسلمين، حقاً:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾
أي: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ بكم لما كان هذا الحكم، ولفضحكم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ﴾ يقبل من التائبين ﴿حَكِيمٌ﴾ في تشريعاته.

بعد أن تحدثت الآيات عن أحكام رمي المؤمنات العفيفات بالزنى، وبعد أن تحدثت كذلك عن أحكام رمي الأزواج لزوجاتهن إذا حدثت، تتحدث عن حادثة الإفك والكذب على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حيث يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ
أَمْرٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾

في هذه الآية يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾ أي: اختلقوا هذه الكذبة الشنيعة على السيدة عائشة رضي الله عنها وهي: حينما سبقها الجيش، دون أن يشعروا بغيابها من مكانها لقضاء حاجتها، لحق بها إليهم رجل من خيار المسلمين، ولما رآها وهي تلحق بهم ضعاف النفوس ومنافقو العقيدة، تحدثوا في شأنها بما لا يليق بمكانها، ولا بمكانتها من العفة والطهارة، وحدثت الشائعات التي روج لها شياطين الإنس والجن، ثم برأها الله تعالى بهذه الآيات الكريمة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾ الكذب ﴿عُصْبَةٌ﴾ جماعة منكم، لا تجزعوا يا مؤمنون ولا تفزعوا، ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ بما نزل معه من أحكام وتشريعات، وبراءات لبيت النبوة، ورُبُّ ضارة نافعة.

ولكن، ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ﴾ وهم الذين تحدثوا به، وأشاعوه جزاء ﴿مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ في ذلك.

﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ﴾ بأن اختلقه أصلاً، وعمل جاداً وبهمة على إشاعته ﴿لَهُ عَذَابٌ﴾ من الله ﴿عَظِيمٌ﴾ وهو المنافق عبد الله بن أبي ابن سلول.

وهكذا انتهت قصة الإفك إجمالاً، ولكن دروسها وعبرها، وتربياتها لم تنته، حيث يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ (١٢)

أي: هل ظننتم خيراً حين سمعتم هذا الكذب ونفيتموه، وكذبتموه؟ وفي ذلك درس للأمة كلها. أن يحسن المؤمنون والمؤمنات الظن بأنفسهم، ولا يدعوا للشيطان مدخلاً لديهم، ولا للظن السيئ طريقاً إليهم، وفي الحديث يقول المصطفى ﷺ: «إياكم والظن.. فإن الظن: أكذب الحديث» [رواه البخاري].

ثم يقول تبارك وتعالى:

﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ (١٣)

يعني: هلاً ﴿جَاءُوا عَلَيْهِ﴾، قبل إشاعته ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ كما علمتهم هذه السورة في آياتها السابقة!! ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ﴾ وبالفعل لم يأتوا؛ لأنه ليس عندهم شهود؛ لأنه لم يحدث شيء أصلاً ﴿فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ المستحقون عذابه وفي ذلك تنبيه للمسلم أن لا يهدف بما لا يعرف، ولا يتهم إلا بينة.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٤)

أي: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ يا من أخطأتم، ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ بكم ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ بامهالكهم لتتوبوا ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ بالعفو عنكم: ﴿لَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ من هذا الكذب ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يهون بجانبه التوبيخ لكم، وإقامة الحد عليكم، وفيه دعوة للتعرض لفضل الله ورحمته، بحسن الأدب، وكثرة الطاعات.

ثم يقول المولى عز وجل:

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٥﴾

يعني: اذكروا حين كنتم تستقبلون هذا الكذب لا بأسماعكم، ولا بعقولكم، ولكن ﴿بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ ولم تفكروا - بالتالي - فيه، ولو فكرتم لعرفتم أنه كذب محض. ولذلك كنتم ﴿تَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ وأنتم - في ذات الوقت - ﴿تَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا﴾ وهو في واقع الأمر ﴿عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾. وفي ذلك دعوة لكل مسلم أن يستعمل عقله، وأن يحفظ لسانه إلا من ذكر الله، أو قول صادق فيه.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وفي الحديث يقول المصطفى ﷺ: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله، لا يلقي لها بالاً: يهوي بها في جهنم» [رواه البخاري].

ثم يقول الحق جل جلاله:

﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٦﴾

يعني: حينما سمعتم هذا الكلام هلاً ﴿قُلْتُمْ﴾ فوراً ﴿مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾ الكلام، على ساحة بيت النبوة، وقلمتم ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾ لا ينبغي أن يسمع، ولا أن يقال، وفيه دعوة لأن ينزه المؤمن ساحة أخيه المؤمن من كل ما يسيء إليه، وأن لا يتكلم عليه إلا بخير، بل عليه أن يرد غيبته.

ففي الحديث، قال رسول الله ﷺ: «من رد عن عرض أخيه: رد الله عن وجهه النار يوم القيامة». [رواه الترمذي، وقال: حديث حسن].

ثم يقول ربنا تبارك وتعالى:

﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾

أي: لا تعودوا لمثل هذا الذنب قذفاً، أو استماعاً، أو نشرًا وإشاعة ﴿أَبَدًا﴾ ما دمتم أحياء ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ حريصين على مرضاة الله، والله عز وجل يبين ﴿لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ الواضحات بالأحكام والشرائع والآداب؛ ليقبلكم شر الوقوع في المهالك. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما ينفعكم ﴿حَكِيمٌ﴾ في شرعه لكم.

وهذا يدفع المسلم إلى البحث في شرع الله، عن الحكم والأسرار، التي تعينه على طاعة الله. ثم يقول جل ذكره:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾

يعني: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ﴾ أو يرغبون، أو يساعدون ﴿أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ﴾ إخباراً عنها، أو دعوة لها، أو ممارسة لها ﴿فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، أو في مجتمعاتهم، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا﴾ بحقارة القدر، وهوان النفس، وإقامة الحد عليه لو كان شهود، ولهم كذلك عذاب أليم في ﴿الْآخِرَةِ﴾ إن لم يتوبوا قبل موتهم.

وفي ذلك: أن من يحب إشاعة الفاحشة، فضلاً عن من يشيعها فعلاً أو يأمر بإشاعتها، أو يساعد على ذلك، أو يرضى - على الأقل - بإشاعتها في الذين آمنوا، وبين صفوفهم، وفي بيوتهم، وفي شوارعهم، ومنتدياتهم، ومجتمعاتهم، بنفسه أو بأية وسيلة من الوسائل؛ فجرمه كبير، وعقابه عند الله عظيم.

ثم يقول تبارك وتعالى:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾

أي: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ يا مؤمنون ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ بمن أخطأ منكم، حيث تاب على من تاب، وطهر بالحد من أقيم عليه الحد، لكان أمراً آخر لا تحمد عقباه لكم. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ بذلك ﴿رَءُوفٌ﴾ بعباده ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم.

وبهذا انتهت قصة الإفك تفصيلاً، ولكن بقيت دروس منها على قدر كبير من الأهمية للمسلمين ومجتمعاتهم.

ثم يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢١)

يعني: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ إن هذه الكذبة التي كانت والفتنة التي تربت عليها - إنما هي من عمل الشيطان: فاحذروا، و ﴿لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ﴾ أي: وساوس ﴿الشَّيْطَانِ﴾ وما يأمر به من أقوال السوء والأفعال الذميمة؛ لأنه من يتبع خطوات الشيطان يقع في الضلال والعصيان ثم يهلك، حيث إن الشيطان ﴿يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ هذا ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ بتحذيركم منه، وتنبيهكم لعداوته وخطره ﴿مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾.

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ﴾ بفضلله ورحمته ﴿يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ من خلقه، وينقذه من الضلال والهلاك ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوال عباده ﴿عَلِيمٌ﴾ بأفعالهم، ونواياهم، ومن يستحق الهداية منهم، ومن يستحق الإضلال، وفي هذا تنبيه لعداوة الشيطان، وتحذير واضح منه مشفوع بدليله، لذا يجب الامثال له، والإفادة منه.

ثم يوجهنا رب العزة إلى الصفح، والعفو، والإحسان، تقوية للمجتمع المسلم، وإشاعة للحب بين أفرده، حيث يقول المولى عز وجل:

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٢)

نزلت هذه الآية بخصوص ما حدث من أبي بكر الصديق رضي الله عنه، لما حلف بعد نزول آيات براءة السيدة عائشة رضي الله عنها، أن يمنع النفقة عن قريبه الفقير، الذي تحدث وساهم في نشر الإفك بين المسلمين، ولم يُقره القرآن على ما فعل، حتى لا يكون سبباً في شيوع القطيعة والعداوة بين الأقارب.

ومعنى الآية: ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ ولا يحلف ﴿أُولُوا الْفَضْلِ﴾ في الدين ﴿مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ في المال ﴿أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ولو أساءوا إليكم ﴿وَلِعَفْواً﴾ أي: أولوا الفضل منكم والسعة، عنهم، ويستروا عليهم إساءتهم، ﴿وَلِيَصْفَحُوا﴾ فلا يعاقبهم، بل يحسنوا إليهم.

﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ إذن فافعلوا معهم مثل ما تحبون أن يفعل الله معكم من العفو والصفح، ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر ويرحم، فتأدبوا بأدب الله، واغفروا وارحموا.

وعند ذلك استجاب أبو بكر فوراً، وأعاد النفقة، وقال: والله إنا نحب يا ربنا أن تغفر لنا، فهلاً كنا كذلك؛ لنكون من المفلحين في الدنيا والآخرة!!
ثم تبين الآيات عاقبة الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في المجتمع المسلم، ويرمون المؤمنات المحصنات الفضلات بما هن منه بريئات، حيث يقول ربنا عز وجل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعْنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾

هذه الآيات الثلاث.. تبين: أن ﴿الَّذِينَ يَرْمُونَ﴾ بالفاحشة النساء المؤمنات ﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾ العفيفات، البعيدات عن كل فتنة وموطن شبهة ﴿الْغَافِلَاتِ﴾ السليمات الصدور، النقيات القلوب، اللاتي ليس فيهن دهاء ولا مكر، والذين يرمون هؤلاء بالفاحشة زوراً وبهتاناً، لهم من العقوبات ثلاثة أشياء:

الأول: ﴿لُعْنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي: يكونون ملعونين، مطرودين من رحمة الله في الدنيا والآخرة إن لم يتوبوا، وتقبل توبتهم، حيث إن من كان ملعوناً في الدنيا فهو ملعون في الآخرة، ومن كان ملعوناً في الآخرة، فإنه لا يكون من أهل الجنة.

الثاني: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ * يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿أي: لهم عذاب شديد يوم القيامة، يوم ينكرون ما كانوا يعملون، فتشهد عليهم أعضاؤهم، ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم وجلودهم فيقولون: ﴿لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصلت: ٢١].

الثالث: يوفيهم الله يوم القيامة جزاءهم، لا ينقص منه شيء. ﴿يَوْمَ يُؤْفِكُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ ﴿أي: جزاءهم العادل، الذي يستحقونه بلا زيادة ولا نقصان، بسبب ما أشاعوه من سوء في المجتمع المسلم، وما رموا به زورًا عفيفات المسلمين.

ثم يكون الدرس الأخير من دورس قصة الإفك في الآية التالية:

﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (٢٦)

وفي هذه الآية تقرير لسنة إلهية يوضحها الحديث الشريف من قوله ﷺ:

«الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف» [رواه: مسلم].

والمعنى: ﴿الْخَبِيثَاتُ﴾ من النساء، ومن الكلمات ﴿لِلْخَبِيثِينَ﴾ من الناس.

﴿وَالْخَبِيثُونَ﴾ من الناس ﴿لِلْخَبِيثَاتِ﴾ من النساء، ومن الكلمات.

﴿وَالطَّيِّبَاتُ﴾ من النساء، ومن الكلمات ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾ من الناس، ﴿وَالطَّيِّبُونَ﴾ من الناس ﴿لِلطَّيِّبَاتِ﴾ من الناس، ومن الكلمات، وعلى هذا فالطييون يدخل فيهم وعلى رأسهم ﷺ وآل بيته الكرام بمن فيهم أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها.

ولذلك يقول رب العزة في شهادة إلهية واضحة، وتبرئة علنية، لبيت النبي ﷺ وآله الكرام ﴿أُولَئِكَ﴾ الطيبون والطييات الذين جمعهم الله بعنانيته، وحفظهم برعايته ﴿مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ عليهم، وفضلاً عن ذلك فإن ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ عند الله في جنات النعيم، جزاء إيمانهم، وعملهم الصالح، وصبرهم على

الأذى، والآية تعزز ثقة المسلم بأهله، وبإخوانه المسلمين وتعزز - كذلك - ثقة الرجل المسلم بزوجته، وثقة المرأة المسلمة بزوجها.

ويلاحظ: أن الأحكام - التي سبق الحديث عنها من أول السورة إلى هنا - هي ما يُسمى بالأحكام العلاجية، لأمراض وقعت وتقع ثم يليها - ابتداءً من هنا - حديث عن الأحكام الوقائية، التي تحول عند الإلتزام بها إلى عدم الوقوع في الأخطاء السابقة، ومن هذه الأحكام آداب الاستئذان في دخول البيوت، يقول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

يعني: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ عليكم في موضوع الاستئذان بثلاثة أشياء:

الأول: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ أي: بيوتًا لا تملكونها، وتقيمون فيها، أو لا تستأجرونها، وتقيمون فيها أيضًا.

﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْذِنُوا﴾ أي: تستأذنوا، وتجدون الأذن بكم من الأذن لكم في الدخول ﴿وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الدخول بهذا الشكل ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من الدخول بغير استئذان، أو مع إذن لا أُنس بكم فيه، وكان ذلك التشريع ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ هذه الخيرية، فتعملون بهذا الحكم، وتداومون عليه.

الثاني: ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا﴾ أي: في البيوت التي تريدون دخولها ﴿أَحَدًا﴾ بالمرءة، أو أحدًا ممن لا يملك الإذن لكم بالدخول ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا﴾ حتى ولو كانت لكم بها مصلحة، ما دام أهلها غير موجودين، أم ما دام من يملك الإذن منهم غائبًا، وهذا المنع مستمر ﴿حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ ممن يملك الإذن، فادخلوها إذا، ولا حرج عليكم.

الثالث: ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ﴾ بعد الاستئذان، أو قبله ﴿ارْجِعُوا﴾ ولا تدخلوا

﴿فَارْجِعُوا﴾ وانصرفوا فوراً، ولا تلتحوا في الاستئذان، ولا تصرُّوا على الانتظار، حتى يؤذن لكم إذ للناس أعدار، فكونوا أهلاً لقبولها بذلك الرجوع؛ استجابة لأمر الله ﴿هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ أي: أطيب وأطهر؛ لما فيه من سلامة الصدور، والبعد عن الإحراج.

هذا، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ استجابة لحكم الله، أو عناداً، أو إهمالاً لتنفيذ هذا الحكم ﴿عَلِيمٌ﴾ فيجازي كل امرئ بما يناسب موقفه. لما نزلت هذه الآيات، سأل الصحابة عن حكم الاستئذان في دخول الأماكن العامة، فنزل قوله تعالى:

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ (٢٩)

يعني: لا حرج عليكم ولا إثم في ﴿أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا﴾ بدون استئذان في دخولها، إذا توافر فيها شرطان:

الأول: أن تكون ﴿غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ أي: ليست سكناً خاصاً، مثل: الفنادق ودور العلم، ودور العبادة.. إلخ.

الثاني: أن يكون ﴿فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ﴾ أي: مصلحة ومنفعة لكم، مادية كانت أو معنوية. هذا، ولما كان هذا الإذن العام، بدخول هذه الأماكن العامة قد يستتبعه دخول بعض الناس لأغراض غير مشروعة، فقد ذيل المولى سبحانه هذا التصريح العام في الدخول بتحذير من عواقب سوء استعمال هذه المرافق العامة، وعدم مشروعية نوايا الداخلين إليها، بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ من أسباب غير حقيقية في دخولها ﴿وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ من أسباب حقيقية خبيثة.

وهذا تهديد يضمن لهذه المرافق العامة حسن استعمالها، ودوام نفعها، والبعد عن أن تكون بؤر إفساد، ومراكز إضرار بالمسلمين ومجتمعاتهم.

ثم تعرض السورة الكريمة لنوع آخر هام من الأحكام الكلية الوقائية الموجهة للمؤمنين جميعاً، والتي يندرج تحتها حكم المستأذنين في دخول البيوت كذلك، ألا وهي أحكام غض البصر وحفظ الفروج، يقول الله تعالى:

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ ﴿٣٠﴾

أي: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ما يلي:

أولاً: ﴿يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ عما حرم الله، ويقتصروا بالنظر إلى ما أحل الله.
ثانياً: ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ من الزنا، ومن النظر إلى غير زوج أو زوجة، ومن التعرية لها.

﴿ذَلِكَ﴾ الغض من البصر، والاكتفاء به على ما يحل، وأيضاً: حفظ الفروج
﴿أَزْكَى﴾ أظهر ﴿لَهُمْ﴾ من دنس الإثم، وأنقى لدينهم ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه ﴿خَبِيرٌ﴾
بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ بالبصر، وبالفروج، فعليهم أن يكونوا على تقوى وعلى حذر.

ويلاحظ: أن هذا الحكم ليس خاصاً بالرجال فقط، بل هو للنساء أيضاً، يقول العليم
الخبير:

﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتٍ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولَى الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿٣١﴾

أي: و - كما قلت للمؤمنين ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ﴾ ما يلي:

أولاً: ﴿يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ حيث إنه لا يحل للمرأة أن تنظر إلى الرجل
الأجنبي عنها، كما يحرم عليه ذلك، سواء بسواء.

ثانياً: ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ عما لا يحل لهن فعله بها، وفيها.

ثالثاً: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ أي: ولا يظهرن ﴿زِينَتَهُنَّ﴾ أي: شيئاً من أجسادهن

﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ وهو: الوجه، والكفين، والقدمين للفقيرات.
 رابعاً: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ﴾ أي: يغطين ويسترن ﴿بِخُمُرِهِنَّ﴾ أي: بالخمار، وهو الذي يغطي به ﴿عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ يعني: رؤوسهن، وأعناقهن، وصدورهن.
 خامساً: ﴿وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ الخفية، وهي ما عدا الوجه والكفين ﴿إِلَّا﴾ لهؤلاء: ﴿لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ أي: أزواجهن وهؤلاء يباح لهم النظر إلى كل شيء منها. ﴿أَوْ آبَائِهِنَّ﴾ ويدخل في هؤلاء، الأجداد.
 ويلاحظ أن دائرة النظر لهؤلاء تختلف عن دائرة النظر المباح للأزواج، وكذا من يأتي من الأصناف الباقية.

﴿أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ﴾ حيث صاروا محارم للمرأة، وهم آباء الأزواج فقط
 ﴿أَوْ أَبْنَاءَهُنَّ﴾ من نسب أو رضاع ﴿أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ﴾ من زوجات أخريات، حيث صاروا محارم لها ﴿أَوْ إِخْوَانَهُنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ﴾ من نسب أو رضاع، ويدخل في ذلك سائر المحارم كالأعمام، والأخوال.

﴿أَوْ إِسَاءِهِنَّ﴾ أي: النساء المسلمات، ويرى بعض العلماء أنهن النساء المختصات بهن بصحبة أو خدمة فقط، من النساء المسلمات ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ من النساء فقط مسلمات، أو كافرات، وأما العبيد: فهم كالأجانب من الرجال، سواء بسواء.

﴿أَوِ التَّبَعِينَ غَيْرِ أُولَى الْأَرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾ أي: غير أولي الحاجة إلى النساء، ولا شهوة لديهم نهائياً، كمقطوع الآلة مثلاً ﴿أَوِ الْطِفْلِ﴾ أي: الأطفال ﴿الَّذِينَ لَمْ يَطْهَرُوا عَلَى عَوْرَتِ النِّسَاءِ﴾ أي: لا يفهمون الفرق بين الرجل والمرأة، ولا يعرفون العورات.

سادساً: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ﴾ لينتبه لها الرجال و ﴿لِيُعْلَمَ مَا يَخْفَيْنَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾. وفي هذا نهى للمرأة وتحريم لأي شيء تفعله، يلفت إليها أنظار الرجال، من زينة، وثياب، وتعطر.. إلخ هذا.. ولأن هذه الأوامر والنواهي يدور عليها صلاح الفرد، وصلاح المجتمع..!! ولأن المرء لا يخلو من سهو أو تقصير، في أوامر الله ونواهيه، مهما اجتهد في حسن التنفيذ، ولأن توبة العبد

مطلوبة في كل حال فقد أمر الله تبارك وتعالى عباده المؤمنين جميعاً قائلاً: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ عما بدر منكم من الأخطاء، وافعلوا ما أمركم الله به من الصفات الجميلة، واتركوا ما نهاكم عنه من الصفات الرذيلة ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ حيث إن الفلاح كل الفلاح في الدنيا والآخرة، في فعل ما أمركم الله ورسوله به، وترك ما نهاكم الله ورسوله عنه.

وبعد الكلام عن غرض البصر وحفظ الفرج: يكون الحديث عن حكم وقائي شامل للمؤمنين جميعاً.. وهو الحث على الزواج، يقول الله تعالى:

﴿وَأَنكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنكُمُ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٣٢) وَلَيْسَتَعَفِيفَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَبَاتُكُمْ عَلَىٰ الْبِغَاءِ إِنْ رَدَدَ خَصْمًا لَتَبْتَغُوا عَرَصَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣٣)

هذا أمر من الله للأمة والمسؤولين فيها وعموم أفرادها بهذه الأشياء، من باب الستر والإصلاح للأفراد، والطهر والفلاح للمجتمع، وهذه الأشياء هي:

أولاً: ﴿وَأَنكِحُوا﴾ وهو أمر بتزويج غير المتزوجين وهما صنفان:

الصنف الأول: ﴿الْأَيْمَىٰ مِنكُمُ﴾ أي: غير المتزوجين عموماً.

الصنف الثاني: ﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ ليحصن دينهم، ويحفظ عليهم صلاحهم.

﴿إِنْ يَكُونُوا﴾ أي: أفراد هذين الصنفين ﴿فُقَرَاءَ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وجوده وكرمه.

﴿وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: عظيم الفضل ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحقه.

ثانيًا: ﴿وَلَيْسَتَعَفِيفَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ﴾ مالا يستطيعون به ﴿نِكَاحًا﴾ أي: زواجًا ﴿حَتَّىٰ يَغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ بمال يتزوج به، أو زوجة ترضى باليسير، أو بكسر شهوته بالصيام، كما في الحديث الشريف.

ثالثًا: مساعدة العبيد على نوال حريتهم. ﴿وَالَّذِينَ يَبْنِعُونَ﴾ يريدون ﴿الْكِتَابَ﴾ أي: المكاتبة على مال، لينال حريته ﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ رجالًا أو نساءً ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾

أي: أمانة، وصلاحًا، وقدرة على الكسب الحلال. وليس هذا فقط، بل يأمر ربنا بمساعدة هؤلاء، حيث يقول: ﴿وَأَتَوْهُمْ﴾ وساعدوهم في تحقيق غرضهم، ونوال حريتهم ﴿مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَيْنَاكُمْ﴾ وأنعم عليكم به. رابعًا: عدم الإكراه على البغاء.

﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِنَتَكُمْ﴾ أي: إمائكم ﴿عَلَى الْبَغَاءِ﴾ الذي هو الزنا بأجر. وذلك ﴿لِتَبْنِعُوا﴾ وتريدون بهذا الإكراه ﴿عَرْضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ من المال، أو الأولاد الذين يولدون منهم فيباعون بمال، وهذا نهى عن ذلك، وتحريم له.

﴿وَمَنْ يُكْرِهْهُمْ﴾ على الزنى، بعد هذا النهي والتحريم: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ﴾ وعجزهم عن الامتناع ﴿عَفُورٌ﴾ لهم ﴿رَجِيمٌ﴾ بهن. ثم يختم القسم الأول من السورة، وهو الخاص بالأحكام والتشريعات بقوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ ءَايَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (٣٤)

يعني: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ﴾ القرآن، فيه ﴿ءَايَاتٍ مُّبِينَاتٍ﴾ وواضحات، موضحات، لما فيه نفعكم وفلاحكم.

وكذلك أنزلنا إليكم ﴿مَثَلًا﴾ خبرًا وقصصًا ﴿مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا﴾ سبقوا ﴿مِّن قَبْلِكُمْ﴾ تبين حسن عاقبة المتقين، وسوء نهاية الطغاة العاصين.

وكذلك أنزلنا إليكم ﴿مَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ينتفعون بها، ومن أراد النفع بها معهم.

وبعد هذه التشريعات، وهذه التوجيهات، التي عالج الله بها الكيان البشري حتى أشرق بالنور، واستشرف النور، وأصبح على استعداد لتلقي الفيض الإلهي في عالم كله نور؛ يقول سبحانه وتعالى:

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾

يعني: ﴿اللَّهُ نُورٌ﴾ أي: هادي أهل ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ وهداه، الذي يقذفه في قلب المؤمن ﴿كَمِشْكَاةٍ﴾ وهي الكوة أي: الفتحة غير النافذة في الحائط، والتي تكون أجمع للضوء ﴿فِيهَا﴾ أي: في المشكاة ﴿مِصْبَاحٌ﴾ سراج منير، ضخم ثاقب، وهذا ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ أي: في قنديل من زجاج صاف.

وهذه ﴿الزُّجَاجَةُ﴾ التي فيها المصباح: مضيئة ضوءاً باهراً ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ أي: كوكب من لؤلؤ عظيم كبير.

وهذا المصباح كذلك ﴿يُوقَدُ﴾ ويستمد وقوده وضوءه ﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ كثيرة المنافع ﴿زَيْتُونَةٍ﴾ هذه الشجرة الزيتونة، التي يستمد المصباح وقوده منها: ﴿لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ بل في مكان وسط ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا﴾ من صفائه ونقاؤه: ﴿يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ أي: يضيء ويتلألاً من غير نار.

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: هذا مثل نور الله تعالى وهداه في قلب المؤمن، ما يكاد الزيت الصافي يضيء قبل أن تمسه النار، فإذا مسته النار زاد ضوؤه، كذلك قلب المؤمن: يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم، فإذا جاءه العلم: زاده هدى على هدى، ونوراً على نور.

نعم، هذا النور الذي شبه به الحق سبحانه وتعالى: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ أي: نور مضاعف.

ثم ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ﴾ ويوفق لإصابة الحق، والسير على هداية ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده، إما بإلهام منه سبحانه لعبده، أو بنظر من العبد في الأدلة.

هذا، و من فضل الله على عباده ﴿يَضْرِبُ اللَّهُ﴾ بهذا الشكل ﴿الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ تقريباً لعقولهم، ليفهموا، فيعتبروا، فيؤمنوا، ويزدادوا هدى ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. لَمَّا ضرب المولى سبحانه المثل لقلب المؤمن، وما فيه من الهدى والعلم، بالمصباح في الزجاج الصافية، والمتوقد من زيت طيب؛ ذكر محل هذا المصباح وهي: المساجد، التي هي أحب البقاع إلى الله في الأرض، وهي بيوته التي يعبد فيها ويوحد، فقال سبحانه :

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ (٣٦)

أي: هذه القلوب المؤمنة مظنة وجودها ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ﴾ أي: أمر ﴿أَنْ تُرْفَعَ﴾ أن تبنى وتعظم، وتبعد عن الفحش في القول، وتطهر من النجاسات والأقذار. و أن ﴿يُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ﴾ سبحانه، بالصلاة، والذكر، وقراءة القرآن، ودروس العلم.. إلخ وهذا يفيد أن مدد الإيمان: وجوده في المساجد، وأن ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ وآناء الليل وأطراف النهار.

ولكن مَنْ هم هؤلاء الذين يسبحون له بالغدو والآصال؟ الجواب:

﴿رِجَالٌ لَا لُئْلِمِهِمْ تَحَرٌُّ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ (٣٧)

يعني: هم ﴿رِجَالٌ﴾ موصوفون بصفات ثلاث:

الصفة الأولى: أنهم يسبحون الله في بيوته، وهي المساجد، بالغدو والآصال. أصبحت همتهم سامية، وعزائمهم عالية، تعلقت قلوبهم بالمساجد، وتطهرت أرواحهم، وزكت نفوسهم من المساجد، وكان من أثر ذلك أن صلحت بهم البلاد، وسعدت بهم العباد، وصار خيرهم عميماً، وشرهم عديماً.

الصفة الثانية: أنهم لا تشغلهم الدنيا بزخارفها عن طاعة الله، وحسن عبادته، والاستعداد للقاءه، ولذلك ﴿لَا تُلْهِمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ حيث إنهم: يؤدون لله حقه، وللمجتمع المسلم حقه، أفراداً وجماعة.

الصفة الثالثة: أنهم لا يغترون بعبادتهم، ولا بتجارتهم، عن طلب مرضاة الله، حيث تراهم دائماً ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ من شدة الفزع، وعظمة الأهوال.

وما كل ذلك.. إلّا:

﴿لِيَجْزِيَهمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾

يعني: أنهم يفعلون ما يفعلون ﴿لِيَجْزِيَهمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ فضلاً منه وكرماً. أيضاً ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، كما في الحديث الشريف الذي [رواه: أحمد، والدارمي] ﴿وَاللَّهُ﴾ من فضله وجوده ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ﴾ ما يشاء ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

وبعد أن بين الله فضله على الذين يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار، ذكر المحرومين من هذا الفضل. فقال عز وجل:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلَهُمْ كَسْرَابٍ بِقِيَعٍ يَخْسَبُهُ الظُّلُمَاتُ مَاءً حَقًّا إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُهُ لَمْ يَكْدِ يَرِبْهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾

هذان مثالان ضربهما الله لأعمال نوعين من الكفار:

فأما الأول: فهو للكفار الدعاة إلى كفرهم، الذين يحسبون أنهم على صواب في الأعمال والمعتقدات، وهم ليسوا كذلك، فمثلهم في ذلك: كالسراب الذي يرى في الأرض عن بعد، كأنه ماء جار يترقرق.

وأما الثاني: فهو للكفار أصحاب الجهل المركب، المقلدون لأئمة الكفر، الصم البكم الذين لا يعقلون، فمثلهم في ذلك: كظلمات في بحر لُجِّيٍّ.. إلخ.
والمعنى: وأعمال ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كهذين المثليين:

المثل الأول: ﴿كَرَّابٍ﴾ وهو ما يرى في ضوء الشمس وقت الظهيرة في الصحراء، كأنه ماء جار ﴿بِقَيْعَةٍ﴾ وهو المكان المنبسط المستوي من الأرض.

وهذا السراب ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ﴾ العطشان ﴿مَاءً﴾ فيذهب إليه؛ ليشرب ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ أي: ماء، بل سرابًا.

وهذا مثال عمله الضائع، وعقيدته الفاسدة، ودعوته الهدامة وليس هذا فقط، بل ﴿وَجَدَ زبَانِيَةً﴾ الله عنده، فيأخذونه، ويلقونه إلى جهنم ﴿فَوَقَّعَهُ﴾ الله فيها ﴿حِسَابَهُ﴾ والله سريع الحساب لا يشغله حساب عن حساب.

المثل الثاني: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ عميق، كثير الظلمات، أحواله مظلمة.. المصدر، والهدف، والمصير، ومع ذلك ﴿يَغْشَاهُ﴾ يغطيه ﴿مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ﴾.

موج فوق موج !! نعم، ولقد اكتشف علماء البحار حديثًا أن هناك نوعين من الأمواج، ظاهرة، وباطنية، في بعض البحار العميقة، وهذا من الإعجاز الإلهي العلمي في القرآن، ثم يقول ربنا: ﴿مِّنْ فَوْقِهِ﴾ أي: هذا الموج الأعلى الظاهري ﴿سَحَابٌ﴾ حقًا إنها ﴿ظُلُمَاتٌ﴾ متعددة: ظلمة البحر، وظلمة الموج، وظلمة السحاب.

﴿بَعْضُهَا﴾ كما هو واضح ﴿فَوْقَ بَعْضٍ﴾، حتى ﴿إِذَا أَخْرَجَ﴾ المرء ﴿يَكْذِبُ﴾ وهو في هذه الظلمات ﴿لَمْ يَكْذِبْ رِنَّهَا﴾. وهذا مثال عمله الضائع؛ لخلوه عن نور الحق، ولأنها ليست على هدى من الله، ولا يراد بها وجهه سبحانه ولا رضاه.

وهكذا ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا﴾ من عنده، يهديه به ﴿فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ﴾ بأي حال من الأحوال، وهؤلاء هم المحرومون حقًا.

وبعد أن تحدث ربنا عز وجل عن المهتدين بنوره وهديه، وبعد أن تحدث - كذلك - عن الأشقياء المحرومين من هذه الهداية، يوجه الأنظار ويلفت البصائر إلى آيات الله،

ودلائل التوحيد في الخلق؛ دعوة للاهتمام، وحثًا على الإيمان، فيقول المولى عز وجل:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَيِّجُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّتِ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتُهُ وَتَسْبِيحُهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾

يعني: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تعلم أيها الإنسان علم اليقين ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ تعالى ﴿يُسَيِّجُ لَهُ﴾ من في السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ من الملائكة، والإنس، الجن، والحيوان، حتى الجماد.. ﴿وَالطَّيْرِ﴾ كذلك تسبحه، وهي ﴿صَفَّتِ﴾ لأجنتها في الهواء.

﴿كُلُّ﴾ أي: كل من في السموات والأرض، وما فيهما ﴿قَدْ عَلِمَ﴾ من الله ﴿صَلَاتُهُ وَتَسْبِيحُهُ﴾.

﴿وَاللَّهُ﴾ وحده ﴿عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ جميعًا، لا يخفى عليه شيء من طاعتهم، وتسبيحهم، وفي ذلك وعد للطائعين بالحسنى، ووعيد للعصاة بسوء الجزاء، وفي ذات الوقت دعوة لمزيد الطاعة من أوليائه، ومراجعة النفس، للبعيد عن آياته.

ثم يقول: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فهو الحاكم وحده، وهو المتصرف وحده، وهو الذي لا تنبغي العبادة إلا له ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ في يوم القيامة، يوم الحساب، وذلك تأكيد لأن يستعمل الإنسان عقله، ويستقرئ آيات الله في كونه ونفسه؛ ليزداد إيمانًا وهديًا.

دعوة أخرى للإيمان بالله عز وجل، يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدَّكَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَافِرُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴿٤٣﴾﴾

يعني: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الإنسان، علم اليقين ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ تعالى ﴿يُزْجِي﴾ أي: يسوق بقدرته ﴿سَحَابًا﴾ في السماء ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾ أي: يجمعه بعد تفرق، ويضم

بعضه إلى بعض ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ﴾ بقدرته ﴿رُكَّامًا﴾ متراكماً فوق بعضه البعض.
﴿فَتَرَى﴾ حينئذ ﴿الْوَدْقَ﴾ المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ أي: من بين هذه
السحابات المتراكمة، بعضها فوق بعض.

أيضاً، ألم تر أيها الإنسان أن الله تعالى ﴿يُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: السحاب:
﴿مِنْ جِبَالٍ﴾ أي: كتل مثل الجبال ﴿فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ حبات الثلج الصغيرة.
﴿فَيُصِيبُ بِهِ﴾ أي: بهذا البرد، ينزله رحمة منه على ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده، ومن
بلاده ﴿وَيَصْرِفُهُ﴾ أي: هذا البرد، ويمنعه امتحاناً منه ﴿عَنْ مَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده،
ومن بلاده.

وفوق ذلك: ﴿يَكَادُ سَنَا﴾ ضوء ﴿بَرْقِهِ﴾ الذي يحدث من احتكاك كتل السحاب
﴿يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ﴾ يخطفها من شدة هذا الضوء، وهذا لا يمكن إلاً بقدره قادر
حكيم، وهو الله وحده فهلاً آمتم به!!

ثم دعوة ثالثة للإيمان بالله، حيث يقول سبحانه:

﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾
أي: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ﴾ بقدرته ﴿اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ فيأخذ من هذا، ويزيد في هذا مرة،
والعكس مرة أخرى كل ذلك لحكم يعرفها، وغايات يقدرها سبحانه.
نعم، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً﴾ وعظة، ودليل على وحدانية الله ﴿لِّأُولِي
الْأَبْصَارِ﴾.

فهلاً اعتبرتم واتعظتم وآمنتم!!

ثم دعوة رابعة لنفس الغرض، حيث يقول جل وعلا:

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ
وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾
وهنا، يذكر الله تعالى قدرته التامة، وسلطانه العظيم، في خلقه أنواع المخلوقات -
على اختلاف أشكالها، وألوانها، وحركاتها، وسكناتها - من ماء واحد.

يقول تعالى: ﴿وَاللَّهُ﴾ القادر ﴿خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾ ، والدواب أنواع: ﴿فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾ بغير آلة مشي من أرجل أو قوائم كالحية وما شاكلها.. وهذا هو أعجب المخلوقات مشياً، ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ﴾ كالإنسان والطيور ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾ كالأنعام وسائر الحيوانات.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يتعذر عليه شيء من هذه المخلوقات ولا غيرها وما دام هو القادر فهو الهادي، فهلاً اعتبرتم وطلبتم الهداية وأنتم؟! ثم يقول ربنا تبارك وتعالى معقباً على هذه الآيات الواضحات الدالة على وحدانيته سبحانه وقدرته:

﴿لَقَدْ أُنزِلْنَا ءَايَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٤٦)

نعم، أنزل الله في القرآن آيات بينات مبينات، لا خفاء فيها ولا إبهام، لهداية الناس. وهكذا، يهدي الله بلطفه ومشيتته ﴿مَن يَشَاءُ﴾ من عباده ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو دين الإسلام، الذي يوصل التزاماً به، وعملاً بأحكامه إلى رضوان الله.

بعد أن اتضحت الآداب والأحكام التي يقوم عليها وينهض بسببها المجتمع المسلم، وبعد أن قدّمت دلائل التوحيد، وآيات القدرة، التي تدعو إلى الإيمان وتعمل على زيادته، وكل ذلك لبناء الشخصية الإسلامية السوية، التي كلفها الله بقيادة الكون والحياة والأحياء بعد كل هذا تعود آيات السورة إلى الآداب والتعاليم والأحكام، التي يربي القرآن عليها الجماعة المسلمة من خلال إعداد الفرد المسلم، ورعاية البيت المسلم وصولاً بها إلى تحقيق الغاية المنشودة من الإنسان ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِعِبَادَتِي﴾ [الذاريات: ٥٦] ومن ثمّ النجاح في قيادة الدنيا وأهلها إلى السلام والعدل والحرية.

نعم، تعود آيات السورة لتطهر قلوب المسلمين من النفاق، حيث تكشف عن بعض صفات المنافقين؛ لنحذرهم، يقول الله تعالى:

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ (٤٨) وَإِن يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفَى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٥٠)

والمعنى: أن المنافقين ﴿يَقُولُونَ﴾ بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾ الله فيما يأمر به، والرسول فيما يحكم به، وبعد إعلان إيمانهم، وإظهار طاعتهم ﴿يَتَوَلَّيْكَ﴾ ويمتنع عن حكم الله ورسوله ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ هؤلاء يحكم الله عليهم بقوله ﴿وَمَا أَوْلَيْكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ كما يدعون بدليل أنهم ﴿إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ بحكم الله، تكون المفاجأة التي تكشف نفاقهم وهي: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ عن هذه الدعوة.

أما ﴿وَلَنْ يَكُنْ لَهُمُ الْخُصْمُ﴾ ويريدون الوصول إليه ﴿يَأْتُوا إِلَيْهِ﴾ أي: إلى الرسول، وإلى شرع الله ﴿مُذْعِنِينَ﴾ طائعين.

ما السبب في تصرفاتهم هذه..؟

يقول تعالى: ﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾. يعني: لا يخرج هذا السبب عن واحد من ثلاثة:

أن يكون موقفهم: لمرض في قلوبهم.

أو أن يكون ذلك: لشك عندهم في الله ورسوله.

أو أن يكون ثالثاً: لأنهم يخافون أن يجور عليهم محمد في الحكم ويظلمهم.

على كل حال ليس السبب هذا، ولا ذاك ﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لأنفسهم، في موقفهم هذا.

إذا كان المنافقون يرفضون، فهناك المستجيبون:

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٥١) ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ الَّذِي يَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ بِالْإِيمَانِ فَآوَىٰ﴾ (٥٢) ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (٥٣)

أي: إنما المؤمنون على عكس ذلك فهم طائعون، ولذلك فهم المفلحون الفائزون كذلك كل ﴿مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ﴾ أي: من غضب الله عليه، ﴿وَيَتَّقِهِ﴾

بامثال أمره واجتناب نهيه، ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَٰرِقُونَ﴾ برضوانه.

اللهم اجعلنا منهم، واحشرنا معهم يا رب العالمين.

وبعد أن عرض الله تعالى الصورة المقابلة للمنافقين، وهي صورة المؤمنين، إعلاءً لشأنهم وبياناً لحسن امثالهم، وتشويقاً للاقتداء بهم، وكشفاً للمنافقين، وتعرية لمواقفهم. تعود الآيات - مرة أخرى - إلى المنافقين، لتحكي بعضاً من مواقفهم السيئة، وأكاذيبهم الواضحة، والتي يؤكدونها بأيمانهم المغلظة، حيث تقول هذه الآيات :

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أُمِّرَتْمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُفْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾﴾

لَمَّا قَالَ الْمُنَافِقُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أينما كنت نكن معك. لئن خرجت خرجنا، ولئن أقمت أقمنا، وإن أمرتنا بالجهاد جاهدنا نزلت هذه الآيات الكريمة تكشف كذبهم، وتفضح نفاقهم.

والمعنى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ﴾ على ما يقولون لك ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ في تأكيد كلامهم هذا ﴿لَئِنْ أُمِّرَتْمْ﴾ بالخروج للجهاد معك ﴿لَيَخْرُجُنَّ﴾.

فرد الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿لَا تُفْسِمُوا﴾ أي: لا تحلفوا على ذلك؛ ف ﴿طَاعَةٌ﴾ منكم ﴿مَّعْرُوفَةٌ﴾ واقعة فعلية، يشاهدها الجميع، ويعرفها منكم الكل.. أولى من هذه الأيمان المغلظة، إن كنتم صادقين حيث ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يعرف الصادق من الكاذب، والمطيع من العاصي، خير بضمائر عباده وما فيها، حتى وإن أظهروا خلاف ما فيها.

ثم أكمل سبحانه الرد عليهم بقوله:

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلُغُ أَلْمَنِتِ ﴿٥٤﴾﴾

أي: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ واتبعوا كتابه ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾

واتبعوا سنته، بالفعل والقول معاً، وليس بالقول فقط، إن كنتم صادقين.

ثم يقول عز وجل لهم: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: تتولوا وتعرضوا ولا تستجيبوا، فما أضررتكم إلا أنفسكم فقط.

﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ﴾ أي: ما على محمد ﷺ إلا ﴿مَا حُمِّلَ﴾ من أداء الرسالة، وتبليغ الأمانة ﴿وَعَلَيْكُمْ﴾ أنتم ﴿مَا حُمِّلْتُمْ﴾ وكلفتكم به من العمل بما بلغتم به، فإن أدى محمد ﷺ وكل داعية ما عليه، فقد خرج من عهدة التكليف والبلاغ.

﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ﴾ أنتم فيما يأمركم به، وينهاكم عنه ﴿تَهْتَدُوا﴾ وتفلحوا، وإن أعرضتم، ولم تفعلوا ما أمركم به وبلغكم إياه، فقد عرضتم أنفسكم لسخط الله...!!
﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَاحُ﴾ لكم، وليس له ولاية على قلوبكم، ولا عليه محاسبة لإعراضكم.

استعدوا لتلقي هذه البشارة الربانية لأهل الإيمان، الذين يحتكمون - ويقدمون الطاعة الكاملة - لله ولرسوله ﷺ.. وهي في صورة وعد إلهي منه سبحانه، إذ يقول جل جلاله:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَهُمُ النَّارُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾

هذه الآيات الثلاث الكريمة تتضمن تسعة أشياء:

ثلاثة منها: مطلوبة.

وثلاثة منها: موعودة.

وثلاثة منها: مرفوضة.

فإذا ما حققت الأمة الأمور المطلوبة، ونجت وتخلصت من المرفوضة، نالت الموعودة.

وتوضيح الكلام فيما يلي: المطالب الثلاثة..

هي: الإيمان: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: وثقوا في هذا الدين، ونصر الله ﴿مِنْكُمْ﴾ المؤمنون، وكذلك العمل الصالح: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وهي: كل ما يسعد العباد، ويصلح البلاد، ويكون في إطار شرع الله.

وأخيراً العبادة: ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾ بالمفهوم الشامل الكامل للعبادة ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾.

من تحلى بهذه الثلاثة: حقق الله تعالى له أموراً ثلاثة هي:

الاستخلاف: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من المؤمنين عليها، بعد إهلاك الظالمين.

وكذلك التمكين للدين: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ وهو الإسلام بأن يُعلي شأنه، ويقوي أركانه، وينصر أتباعه.

وأخيراً، الأمن بعد الخوف: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ أي: يرزقهم الأمن والأمان في الدنيا، على أنفسهم وأهليهم وأوطانهم ومبادئهم.. الخ.

ومن المعلوم: أن هذه المواعودات الثلاثة لا تُنال ولا تتحقق إلا بعد الحذر، والبعد عن هذه المخاطر الثلاثة وهي:

خطر العصاة المنهزمين في الصف الإسلامي ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ بوعد الله، ولم يصدق به، وفقد الثقة في هذا الدين ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ التوضيح وهذا البيان: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الخارجون عن رحمة الله، ونوال نصره.

وكذلك: خطر الغرور حال الاتصاف بالمطلوب، أو بعد تحقق الموعد ﴿وَأَقِمُْوا الصَّلَاةَ﴾ خضوعاً لله وطاعة له ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ رفقا بالمحتاجين من عباد الله، وطاعة له ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ ولا تقدموا قولكم على قوله، ولا فعلكم على فعله ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ في الدنيا والآخرة، بسبب هذه الطاعة، والبعد عن الغرور.

وخطر الحرب النفسية، والتي هي أسرع بالهزيمة إلى من تصوب إليه، من فعل أحدث آلات الحرب فيه و﴿لَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ﴾ لكم ﴿فِي الْأَرْضِ﴾، وسابقين عليكم ﴿وَمَا أَوْنَهُمْ النَّارُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾.

هذه الأشياء التسعة: فهمها المسلمون الأوائل؛ فعملوا بها..!!

فحقّقوا ما طلب منهم، وتجنّبوا ما خوفوا منه، فنالوا ما وعدوا به، وحقق الله لهم وعده، وهذه البشريّ باقية إلى يوم القيامة..!! فهلاً فهمناها، وعملنا بها.. لنخرج من أزماننا..!! أدعوا الله أن يكون ذلك.

هذا وبعد ثمان وعشرين آية مرت علينا، كلها تمهيد يوجب الامثال للأوامر، والابتعاد عن النواهي، يعود الحديث إلى آداب الاستئذان مرة أخرى، ولكن في هذه المرة عن الاستئذان داخل البيت الواحد.

يقول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَوةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَفَاتٌ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾

المعنى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ﴾ في الدخول عليكم ﴿الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾ من العبيد والإماء، وكذلك الأطفال الصغار ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ﴾.

وذلك: ﴿ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾ في اليوم واللييلة. وهي:

الأولى: ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوةِ الْفَجْرِ﴾ لأنه وقت القيام من المضاجع.

الثانية: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ﴾ للراحة والقيلولة ﴿مِّن﴾ وقت ﴿الظَّهِيرَةِ﴾.

الثالثة: ﴿وَمِن بَعْدِ صَلَوةِ الْعِشَاءِ﴾ لأنه وقت النوم، والتجرد من ثياب اليقظة.

هذه أوقات ﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ﴾ ولا بد من الاستئذان فيها صيانة لهذه العورات.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: العبيد والإماء، والأطفال الذين لم يبلغوا الحلم منكم ﴿جُنَاحٌ﴾ حرج وإثم في عدم الاستئذان في أي وقت ﴿بَعْدَهُنَّ﴾ أي بعد هذه الأوقات الثلاثة.

والعلة في رفع الإثم؛ لعدم الاستئذان في غير هذه الأوقات الثلاثة: أنهم ﴿طَوَّفُوا عَلَيْكُمْ﴾ في الحركة اليومية المعتادة داخل البيت الواحد، ودخول ﴿بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ من أجل المصالح الحياتية ﴿كَذَلِكَ﴾ البيان الواضح المفيد: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ﴾ تعالى ﴿لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ والأحكام التي تحتاجون إليها ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمصالح عباده ﴿حَكِيمٌ﴾ في بيان مراده. هذا:

﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٥٩)

يعني: ما سبق، وهو حكم العبيد والإماء والأطفال دون الحلم في الاستئذان داخل البيت، وعلى من فيه من الآباء والأمهات.

والحكم الآن أنه ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ﴾ الصغار ﴿مِنْكُمُ الْحُلُمَ﴾ أي: سن الاحتلام، فقد تغير حكمهم عما سبق قبل الاحتلام.

يقول المولى عز وجل: ﴿فَلْيَسْتَأْذِنُوا﴾ إذا أرادوا الدخول عليكم، في أي وقت من الأوقات، دون استثناء، وذلك ﴿كَمَا اسْتَأْذَنَ﴾ الرجال ﴿الَّذِينَ﴾ بلغوا الحلم ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ صيانة للعورات، وحماية للحريات.

﴿كَذَلِكَ﴾ البيان الواضح المفيد ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ﴾ تعالى ﴿لَكُمْ﴾ آياته، وروائع تشريعها، التي تنتفعون بها ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمصالح عباده ﴿حَكِيمٌ﴾ في بيان مراده.

والقواعد من النساء أما وهن الكبيرات المسنات، لهن أحكام خاصة بهن. ومن هذه الأحكام: ما يتعلق بالتستر والاستئذان؛ حيث إن أكثر ما يدخل عليهن الأقارب، ولذلك يقول المولى سبحانه:

﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٦٠)

يعني: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ الكيبرات ﴿الَّتِي﴾ قعدن عن النكاح، أو عن الحيض، أو عن الاستمتاع، وأصبحن ﴿لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ ولا رغبة لهن فيه ولا تطلعا إليه ما حكمهن..؟ يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ﴾ إثم أو حرج، في ﴿أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ الظاهرة تخففاً منها، وهذا من باب التيسير عليهن.

ولكن بشرط أن يكن ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ﴾ أي: مظهرات أو متعرضات للغير ﴿بِزِينَةٍ﴾ لينظر إليهن.

ومع هذا ﴿وَأَنْ يَسْتَغْفِرْنَ﴾ عن وضع ثيابهن وخلعها؛ من باب المحافظة والستر والاحتياط ﴿خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ في الدنيا بالبعد عن مواطن الفتنة، وفي الآخرة بثواب حسن الامتثال.

هذا ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لما يقلن، ويقال لهن ﴿عَلِيمٌ﴾ بما في نفوسهن من الرغبة في طاعة الله، وعدم ذلك.

وما دام الأمر في الحكم السابق مع القواعد من النساء هو من باب التيسير عليهن، ورفع الحرج عنهن، فإن الله تعالى يبين حكماً آخر هو - كذلك - من باب التيسير ورفع الحرج. يقول المولى سبحانه:

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْهُمُ مِفْتَاحُهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

هذه الآية الكريمة أفادت الأحكام والآداب التالية:

أولاً: رفع الإثم عن أصحاب الأعذار في التخلف عن الجهاد، وفي تناول الطعام مع الأصحاء، وفي تناول الطعام من البيوت المذكورة في الآية.

ثانياً: رفع الإثم عن المسلمين في الأكل مجتمعين مع بعضهم البعض، أو منفردين، دون قيد بهذا أو ذاك.

ثالثاً: الأمر بالسلام والتحية عند دخول البيوت.

والمعنى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ أي ليس على أي واحد من هؤلاء، إثم ولا مؤاخذه، فيما ذكر، من التخلف عن الجهاد، أو تناول الطعام مع الأصحاء، أو تناول الطعام من البيوت المذكورة. ﴿وَلَا﴾ حرج كذلك عليكم أيها الأصحاء، في الأكل أيضاً من البيوت المذكورة في الآية.

وكذلك ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها المسلمون ﴿جُنَاحٌ﴾ أي: إثم وذنب، في ﴿أَنْ تَأْكُلُوا﴾ مع بعضكم البعض ﴿جَمِيعًا﴾ على طعام واحد ﴿أَوْ أَشْتَاتًا﴾ متفرقين.

وكل ذلك من باب الرخصة لكم، والتيسير عليكم، ولكن مع الأدب الذي ينبغي مراعاته عند تنفيذ ذلك.

يقول تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا﴾ من البيوت المذكورة ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ الذين هم من ﴿أَنْفُسِكُمْ﴾ ديناً وقرابة.

وذلك السلام ﴿رَحِيَّةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ ثابتة بأمره، مشروعة من لدنه سبحانه ﴿مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ يرجى بها من الله زيادة الخير، وطيب الرزق.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ البيان الواضح المفيد ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ﴾ تعالى ﴿لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ والأحكام والرخص ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أحكامه وتفهمون تشريعه وتشكرونه على رخصه وتيسيره.

أذكرون أن السورة الكريمة بدأت بقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا فِيهَا ءَايَاتٍ يَّبَيِّنُ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

وها هي تختتم - كما سمعنا - بقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ
الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

والخطاب فيهما واضح أنه للمؤمنين.

لذا فقد بين الله أهل هذا الإيمان الذين يتذكرون ويعقلون هذه الآيات، بقوله:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ
يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذِنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرَ لَهُمْ
اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٦٢)

يعني: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ الكاملون في إيمانهم من وصفوا وتحققوا بهذه الأمور

الثلاثة وهي:

أولاً: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ﴾ ووثقوا في دينه، وخضعوا لأحكامه.

ثانياً: والذين آمنوا بـ ﴿رَسُولِهِ﴾ ﷺ، واقتدوا به، واتبعوا هديه وسنته.

ثالثاً: والذين ﴿إِذَا كَانُوا مَعَهُ﴾ مجتمعين ﴿عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ أي: يجمع له
الناس، كالجهاد، والجمعة، والعيدين ﴿لَمْ يَذْهَبُوا﴾ بعيداً عنه ﷺ
﴿حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ ويوافق لهم على الذهاب والانصراف.

وهذا الوصف الثالث على درجة كبيرة من الأهمية، حيث ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ﴾
ولا ينصرفون من عندك إلا بإذنك ﴿أُولَٰئِكَ﴾ هم المؤمنون الكاملون الصادقون
﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾. هؤلاء عليك أن تأذن لهم.

﴿فَإِذَا أَسْتَأْذِنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ الذي يعرض لهم، فالأمر مفوض لرأيك
﴿فَأَذَنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ أن تأذن له، ولا تأذن لمن شئت منهم أن لا تأذن له.

﴿وَاسْتَغْفِرَ لَهُمُ اللَّهُ﴾ حيث اضطرتهم ظروفهم أن يقدموا بعض أمور الدنيا على
أمر الآخرة.

وبعد هذا التوجيه للأمة...!! وكذلك بعد هذا التشريف لمحمد ﷺ...!! يعلم الله
المؤمنين كيفية الاستئذان وأدبه مع النبي ﷺ، حيث يقول لهم:

﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٦٣)

أي: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ﴾ عند مناداتكم عليه، أو استئذانكم منه ﴿كَدُعَاءِ﴾ كمناداة ﴿بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ بل عظموه ووقروه.

وهذا لمن يستأذنون منه.

وهناك فريق لا يستأذن بالمرّة، بل ينصرف متسللاً، دون إذن منه ﷺ، وهم المنافقون، وهؤلاء يهددهم الله عز وجل بقوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا﴾ في خفية وتستتر، وهذا مخالفة لأمره، الذي جمع الناس عليه، ومخالفة لأمرنا في وجوب طاعته، وعدم الانصراف دون إذنه ﷺ.

لذلك، ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ من شيئين:

الأول: ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ في الدنيا.

الثاني: ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ﴾ في الآخرة.

أيها الأحباب إذا كان الأمر كذلك، وهو كذلك...!! فالواجب الامتثال، وعدم المخالفة.

حيث إن هذا الأمر والتشريع من الله تعالى الذي يهدد المخالفين قائلاً:

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٦٤)

نعم، ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من الموجودات بأسرها، خلقاً، وملكاً، وتصرفاً ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: يعلم يقيناً ما أنتم عليه في جميع أحوالكم.

وهذا خطاب للجميع، ثم يكون تهديد المنافقين بقوله ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ مع الخلائق كلها ﴿فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ كله ظاهراً، وباطناً، من سوء أعمالهم، ويجازيهم عليها بأسوأ منها، خاصة ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه شيء من الأشياء، كبيراً كان أو صغيراً.